

بغية الطلب في تاريخ حلب

@ 735 منزلته تزداد ومرتبته ترتفع إلى أن مات الملك المعظم عيسى وولي ابنه صلاح الدين داود دمشق فاستمر في القضاء على حاله إلا أن داود بن عيسى ولي القضاء أيضا معه القاضي محي الدين يحيى بن محي الدين محمد بن الزكي ونزل الملك الكامل محمد والملك الاشرف موسى على دمشق وحصراها وفتحها وسلمت إلى الملك الاشرف موسى فعزل ابن الزكي عن القضاء واستمر شمس الدين أحمد الخويي على قضاء القضاة في سنة سبع وعشرين وستمائة . وسمت نفسه إلى حفظ القرآن العزيز ولم يكن يحفظه فحدثني جماعة بدمشق أنه ألزم نفسه بحفظه حتى حفظه جميعه وكان يقرأه وهو قاضي القضاة على بعض القراء بدمشق فكان يجلس بين يديه وهو قاضي القضاة بجامع دمشق كما يجلس التلميذ بين يدي الأستاذ ثم أنه رغب عن القضاء ومال إلى الزهد والانقطاع وطلب من الملك الاشرف الإقالة من القضاء وأن يأذن له في الحج فأجابته إلى ذلك وحج إلى بيت الله الحرام وأرسله الملك الاشرف في رسالة إلى سلطان الروم كيقيباذ بن كيخسرو فتوجه إليه واجتاز علينا بحلب في سنة أربع وثلاثين وستمائة ثم انه ولي القضاء بعد ذلك مرة ثانية فبقي قاضيا بها ومرض مرضة بحمى السل وتوفي بدمشق في سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وكنت إذ ذاك رسولا بمصر فبلغتني وفاته وأنا بها وكان بيني وبينه اجتماع ومخالطة بحلب ودمشق وسمع معي بحلب الحديث وكان حسن العشرة حلو العبارة في بحثه موقفا في أحكامه لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يراعي في أحكامه ذا سلطان لسلطانه ولا ذا جاه لجاهه بل يجري على سنن الحق وطريق العدل .

وكان قد سمع بنيسابور المؤيد بن محمد بن علي الطوسي وحدث عنه